كتب

دخل غطاء الرأس في الحيّز الثقافي حين صار يَحملُ معاني مختلفة ويُعبّر عن جماعات متعددة، فهو هنا لا يؤدي وظيفته الأصليّة الصحّية أو الجمالية بقدر ما يؤدي وظيفة علاماتيّة يتميّز بها صاحبها عن الآخرين وتُحدّد انتماءه

غطاء الرأس ودلالاته العراقية

من علامة إلى سلطة

علي صلاح بلداوي

«الدراسات الثقافية عالمُ واسع لأنّه يتغلغلُ في كلِّ مفاصل الحياة التي تتدخل فيها الثقافة وتُؤثر، كالأدب وتفرعاته وما ينبني عليه من نقد، والفنون المعماريّة وتجلياتها، والأزياء والموضة، وتفنن المجتمعات في طبخ طعامها وطريقة تناوله...»، بهذا المدخل الذي نقرأه في مقدمة كتاب «غطاء الرأس في الثقافة العراقيّة في العصر الحديث (الأنساق، الفضاء، التحولات)»، الصادر حديثًا في 128 صفحة عن دار الشؤون الثقافيّة في بغداد، للأكاديمي العراقي عبد العظيم السلطاني (1964)، نفهم أنَّ موضوعة الكتاب تدخل في مضمار الدراسات الثقافيّة التي من شأنها إيقاظ الوعي النقديّ، ولفت النظر إلى أبعاد الممارسات والمعتقدات والأفكار التي تشكّل النسق الثقافيّ العام في مكان معيّن.

السلطاني، الذي يشغل منصب أستاذ النقد الحديث في كلية التربية للعلوم الإنسانية بجامعة بابل، وزّع كتابه على ثمانية أجزاء، أو فصول، رغم أنّه اكتفى بالعناوين الرئيسية من دون ذكر كلمة «فصل»، ابتداءً بالمقدمة التي استعرض فيها أهمية الدراسات الثقافيّة كونها تعدُّ عالمًا مركبًا من المنهجيات البحثيّة، وخلاصات معرفية لحقول عديدة، فهي لا تقتصر على جانب معرفيّ واحد، بل تتعدد المعارف فيها لكي تدرس الظواهر الثقافية والاجتماعية من خلال تفكيكها وبنائها، لاستيعابها بشكلٍ علميّ صائب.

إلى جانب هذا، يقدّم الكاتب تعريفًا لمفهوم غطاء الرأس وماذا يعني به، إذ نفهم أنَّ الغطاء يشتمل على كلِّ ما يوضع على رأس الرجل، مع اختلاف التسميات، «غترة»، «شماغ»، «عقال»، وغيرها من الأشكال التي تستخدم في مناسبات ومواضع مختلفة، إضافةً للغطاء الذي تستخدمه المرأة، سواء بشكلٍ مستمر «بحسب الفرض الديني»، أو في مناسبات معينة، وهذا قد لا يحتاج إلى تعريف، غير أنه ضروريّ لفهم موضوع الدراسة وعلامَ تشتمل، فالاستعراض الذي نقرأه في المقدمة لغطاء الرأس وتاريخه، يتيح للقارئ تكوين فهم عام مسبق لما سيتحدث عنه الكتاب في ما سيأتي.

من خلال الفصول الثمانية للكتاب: «مشهد تنوّع الغطاء»، «اللغة وغطاء الرأس»، «الاقتضاء والهوية»، «غطاء الرأس والسلطة»، «غطاء الرأس وفاعلية الخطاب»، «الداخل والخارج»، «التحول وتعدد الدوافع»، «انتصار العلامة لذاتها»، ترتسم أمامنا الخريطة الكاملة لرحلة الغطاء، ابتداءً من وجوده ومن ثمَّ ضرورته وتاريخ تطوره وعلاقته الوثيقة بالمحيط الذي يُعرف فيه.

تظهر الأبعاد التي اكتسبها غطاء الرأس على مرّ الزمان، والتي أصبحت في ما بعد لازمًا من لوازم المجتمع وثقافته وانتمائه. وبهذا، فإنَّ دوره، في العَصر الحديث (حيث الموضة والتخلص من كلّ ما هو قديم ولا يؤدي الحاجة)، تجاوز دوره السابق، صار له حضوره الخاص، علامته المهيمنة، وسلطته الحاضرة.

لغطاء الرأس في الثقافة العراقيّة وحتّى العربيّة دلالات عديدة تختلف بحسب الرقعة الجغرافية، وتختلف من حيث الشكل والطريقة حسب الفترات الزمنية التي تتطوّر فيها الحاجة إليه. فيَذكُر السلطاني أنَّ الحاجة الشخصيّة لوجود الغطاء فرضتها طبيعة البيئة والظروف المناخيّة التي كان يعيشها الإنسان العربيّ في حلّه وترحاله، فالحرارة العالية صيفًا والبرودة شتاءً وما بينهما من عواصف رمليّة وقساوة صحراويّة من شأنها أن تؤدي إلى أضرارٍ صحيّة للرأس والوجهِ، هذا ينطبق كذلكً على المرأة التي بدورها حرصت على هذه الحماية التي تحتاجها أكثرٍ من الرجل لغاياتٍ صحيّةٍ وجماليّةٍ أيضًا. وبما أنَّ الحاجة إليه فرضتها الظروف المكانيّة، فماذا لو زالت هذه الحاجة مع التطوّر الحاصل بطرق الحماية من العوامل المناخيّة وتغيّر المكان من حيث المسكن والتنقّل وحتى المشي؟

دخل الغطاء في الحيّز الثقافي حين صار يَحملُ معاني مختلفة ويُعبّر عن جماعاتٍ شتّى، فصار يُميّز به من يسكن في الشمال أو الغرب أو الجنوب، لأنَّ لكلِّ منطقةٍ طريقتها المعيّنة في اللبس، وبه يُعرف المرءُ إذا وضعه بطريقة جماعةٍ ما، ويُحسب منها، فهو هنا لا يؤدي وظيفته الأصليّة بقدر ما يؤدي وظيفة علاماتيّة يتميّز بها صاحبها عن الآخرين ولا يشبههم، وهو هنا تحوّل من حاجةٍ إلى هويّة فخطابٍ ثقافيّ. في هذا الموضع يستحضر الكاتبُ رولان بارت وما أورده من «التمييز بين الزهور بوصفها دلالة مستقلّة حياديّة، والزهور المُهداة بوصفها علامة. فهي في الحالة الثانية صارت علامة حين ارتبطت بمشاعر المُهدي، فأصبحت ممتلئة برسالة، في حين كانت الزهور فارغة من الرسالة قبل اتّحادها بالمشاعر. والأمر نفسه ينطبق على غطاء الرأس، حين كان في طوره الأول تعبيرًا عن حالة اقتضاء تستدعيه طبيعة الحياة والظروف البيئية، فكان دالًا على المعنى الأولي، وهو: إنَّ إنسانًا يضع غطاءً على رأسه هو بحاجة إليه. وحين حمّل هذا الغطاء بمعنى ثقافي في وقت لاحق، صارَ علامة سيميائيّة دالة على أمرٍ ثقافي مَعيّن».

صارَ غطاء الرأس علامة سيميائيّة دالة على أمرٍ ثقافي معيّن

حقل العلامات الثقافية تقل فيه الدراسات ولا سِيما عراقياً

التوظيف ومزالقه

تتجاوز وظيفة غطاء الرأس كونها علامةً لتشكّل علاقةً بالسلطة حيناً، ثمَّ ليكون غطاء الرأسِ هو السلطة في أحيانٍ أُخرى. وبحسب الكاتب، فإنَّ السلطة توظِّفه لتتميّز به وتُعلن عبره ضِمنًا، عن هويَّتها الثقافيّة المختلفة، وهذا ما لا يحقق التوازن في مجتمعٍ يُقاد من قبل هذه السلطة، لأنّها بهِ، تنحازُ للجماعة التي تنتميً إليها، لا إلى المجموع الذي ينبغي أنَّهَا تمثّله.

تتجاوز وظيفة غطاء الرأسً كونها علامةً لتشكّل علاقةً بالسلطة حينًا، ثمَّ ليكون غطاء الرأس هو السلطة في أحيانٍ أُخرى. وبحسب السلطاني، فإنَّ علاقته تظهر حين يكون مُستخدمًا من قبل السلطة التي توظِّفه لتتميّز به وتُعلن عبره ضِمنًا عن هويَّتها الثقافيّة المختلفة، وهذا ما لا يحقق التوازن في مجتمعٍ يُقاد من قبل هذه السلطة، لأنها بهِ تنحازً للجماعة التي تنتمي إليها، لا المجموع الذي ينبغي أنَّها تمثّله. وفي حين يكون الغطاء هو السلطة نفسها، حيث يصبحُ مؤثّرًا ويمارس فعلًا في الدائرة الثقافيّة التي يسودُ فيها، كأن يُمارس رجلُ الدين سلطته التأثيريّة عبر ما يضعه على رأسه، وشيخ القبيلة وما يفرضه على جماعته برمزيّة «الشماغ» و«العقال» الذي يمثّل السلطة بالنسبة للآخرين.

لا تنفكُّ العلاقة بين الأغطية والثورات والحركات التحرريّة التي شهدتها الساحة العراقيّة وحتّى العربيّة، فلطالما كانت أيقونةً معبِّرةً عن التحرر من الهيمنة والإشارة من خلالها إلى تبني الفكر النضالي والثوري، وهو ما نجده في الكوفية العراقيّة والفلسطينية مثالًا، والتي تعد نسقًا ثقافيًا له دلالاته في الحرب والسلم. في الساحة الثقافية ما زالت الكوفيّة تقوم بهذا الدور، إذ تتغيّر علامتها حين تُزالِ عن الرأس (الاستخدام الطبيعي لها)، لِتُلفَّ على الرقبة، العلامة الدالة على فكر صاحبها وموقفه واستعداده.

تجاريًا، صارت أغطية الرأس وملحقاتها من المُكمِّلات الجمالية التي تندرج ضمن مفهوم «الموضة». وعلى الرغم من أنَّها لم تخضع لتحسيناتٍ أو تغييراتٍ معيّنة، إلا أنَّها ظلّت حاضرة لتكون العلامة المختلفة عمّا يُدرج الآن من ملبس، ولتكون ملفتة جماليًا لمن يرتديها. اقتصار الكتاب على موضوعٍ واحد، هو غطاء الرأس، يجعلنا ندور فيً فلك فكرةٍ واحدةٍ رغم تنوّعها، فلا نكتشف عبره أكثر من معرفة الدلالات والعلامات التي يؤديها الغطاء، وغرضه الثقافي والهوياتي عند من يرتديه، إضافةً إلى سلطته التي يفرضها، بحسب ما يعبر عنه من سلطة، سواء كانت سياسية أم اجتماعية أو دينية. إن هذا الحقل الثقافي، حقل العلامات، تقل فيه الدراسات، وتحديدًا في العراق، ورغم أنه يتعلق بالأزياء بالدرجة الأولى، ويقتصر على جانبٍ منها، إلا أنّه يمكن أن يُؤخذ كمنظارٍ نرىً عبره كلّ ما يمكن أن يقع نظرنا عليهً، ونخضعه لأساليب التحليل ومَديات الرؤية التي استند إليها الباحث في كتابه هذا.

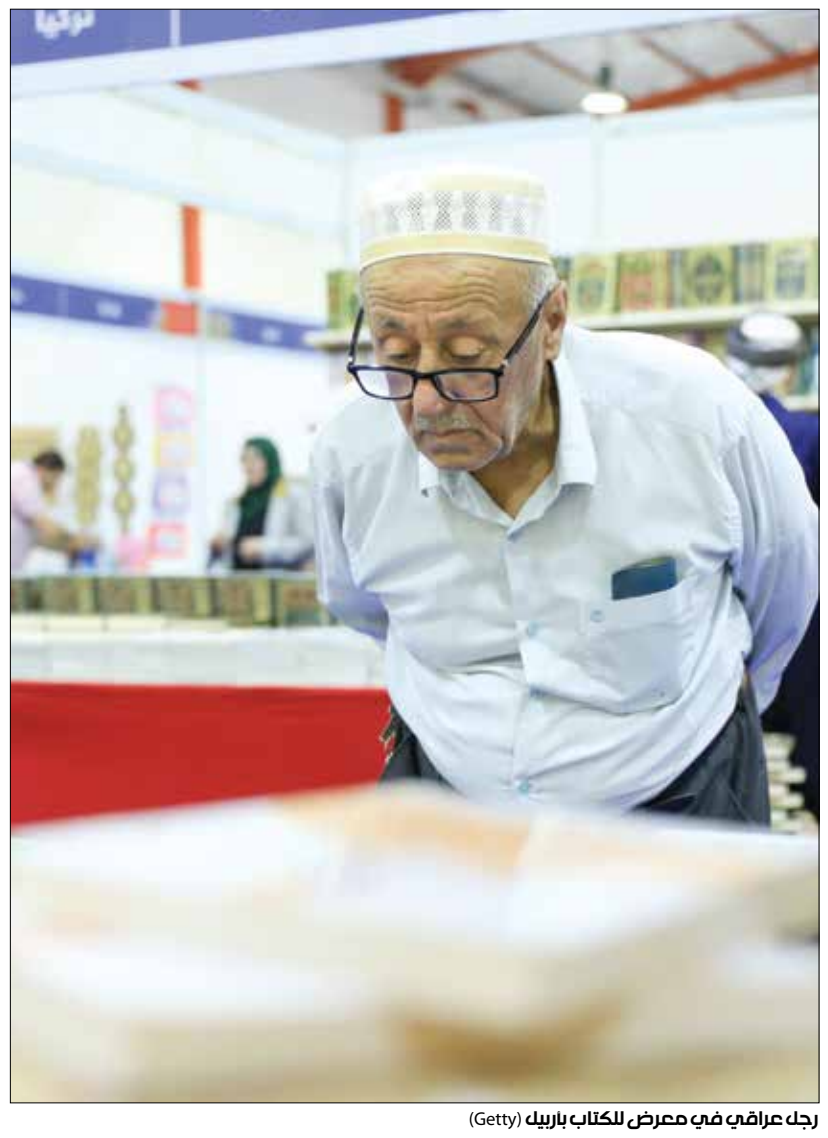

(كاتب من العراق)

رجل عراقي في معرض للكتاب بأربيل (Getty)

نظرة أولى

يتألّف كتاب **موجز تاريخ العثمانيين** لـ خليل إنالجيك، الصادر عن «دار نينوى» بترجمة أحمد الإبراهيم، مِن ثلاثة نصوص: يتناول الأوّل إطاراً عامّاً للدولة العثمانية منذ بدايتها ثمّ تطوّرها ضمن المناطق الحدودية والأطراف باعتبارها مركزاً استقرّت فيه الحضارة الإسلامية- التركية، ويتناول الثاني التطوّرات العسكرية والسياسية في عهد مراد الثاني ومحمد الثاني وبايزيد الثاني، بينما يُقدّم النصّ الثالث دراسة مقارنة بين دراسات ل. كاهون ودبليو بارثولد وبوفا حول تيمور، تتناول تفاصيل مهمّة بطريقة أكثر إيجازاً وأكثر قابلية للفهم.

هل تدمير غزّة نتيجة لهجوم السابع من أكتوبر أم هو خاتمة عملية طويلة من القمع والاستئصال؟ هل يحقّ للفلسطينيّين مقاومة الاحتلال؟ وهل الحديث عن الإبادة الجماعية معاداة للسامية؟ يحاول المفكّر الإيطالي إنزو ترافيرسو، في كتابه **غزّة أمام التاريخ**، الصادر عن «دار لاتيرزا»، تقديم أجوبة مختلفة عن تلك السائدة في الغرب؛ حيث توصف «إسرائيل» بأنّها جزيرة «الديمقراطية»، وحماس بأنّها «جيش وحشي من سكّان الرمال». لا يتردّد المؤلّف في القول إنّ ما يحدث في غزّة إبادة جماعية، وأنّ التاريخ يعيد إحياء الإبادات الجماعية التي ارتكبها الغرب.

صيف مع باسكال عنوان الترجمة الإنكليزية من كتاب الباحث أنطوان كومبانيون، التي صدرت عن «منشورات جامعة هارفرد» بتوقيع كاترين بورتر. يضيء الكتابُ على سيرة الفيزيائي الفرنسي بليز باسكال (1623 - 1662) الذي ترك إسهامات بارزة في مجال ميكانيكا الموائع، مركّزاً على سجالاته مع عدد من معاصريه في مرحلة اتّسمت بالتعارض بين العلم والدين، كما تُبرزه مؤلّفات بعضهم، من خلال مناقشة كتابه «الأفكار» الذي صدر بعد رحيله، وتضمّن آراء معمّقة كتبها في فترات متقطّعة من حياته في اللاهوت والفلسفة من منظوره كفيلسوف لم يتخلّ عن إيمانه الديني.

في كتابها **لعبة الكتابة: الميتاقصّ والرواية العربية**، الصار عن «المؤسّسة العربية للدراسات والنشر»، تتناول الباحثة آمنة حجّاج الآليات التي وظّفها كتّاب عرب للانتقال بخطابهم السردي نحو رؤى تجريبية تتّخذ من الميتاقصّ سبيلاً لها. ومن خلال عدد من النماذج السردية، تحاول المؤلّفة الإجابة عن أسئلة مثل: هل «الميتاقصّ» في الرواية العربية محض مجاراة للأطروحات السردية الغربية أم هو ظاهرة فكرية تحفر في عمق الهوية السردية؟ وهل هو تعبير عن موقف الكاتب من الكتابة وتصوّره لها؟ وهل يرمي إلى توجيه القارئ نحو نوع خاصّ من التلقّي؟

صدر، عن وزارة الثقافة الأردنية، كتاب **الفنّ التشكيلي والاقتصاد الإبداعي: كيف يصبح الإبداع سلعة؟** من إعداد الباحث وأستاذ الفنون الجميلة عبد الله التميمي. يناقش المؤلّف تحوّلات الفنون المعاصرة وعلاقتها بالاقتصاد الإبداعي، من خلال استعراض مفاهيم وقضايا الواقع الافتراضي، وهوية الفنّ ووظائفه الوظائفية وطرق استثماره، كما يبحث في صناعة المحتوى الفنّي وتسويقه، وفق تطوّر التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، والتواصل المرئي مع الشكل الرقمي، وتأثير العولمة الرقمية على إعادة تشكيل هوية المجتمع، وفي ظلّ مفهوم الاقتصاد المبني على الإبداع.

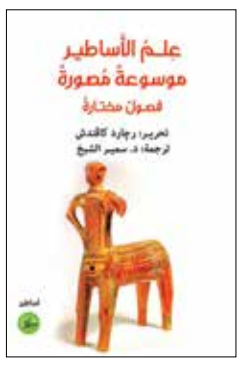

يكشف كتاب **علم الأساطير**، الصادر عن دار «خطوط»، بتحرير رجارد كافندش وترجمة سمير الشيخ، أنواع العلاقات المعقّدة بين الآلهة والبشر؛ فالهندوسية والأساطير الإغريقية والرومانية تُتيح مساحة واسعة للاختلاط بينهما، بينما ترفض البوذية الاتصال بعالم الآلهة وتنشط نوعاً من المرويات الأسطورية لمجالدة المختارين وقصصهم، أمّا في أساطير وادي الرافدين، فهناك فاصل كبير بين الآلهة والبشر. يرصد الكتاب هذه التفاوتات، مشيراً إلى أنّ الطبيعة البشرية بحاجة إلى سلطة الأسطورة حين تريد النهوض والقوّة والمقاومة فيما وراء قوانين العلم والجدل والعقل.

عن «دار الرافدين»، صدرت ترجمة عربية لرواية **البيوض القاتلة** للروائي الروسي ميخائيل بولغاكوف (1891 - 1940) بتوقيع ثائر زين الدين وفريد حاتم الشحف. تصوّر الرواية، بأسلوب يمزج بين السخرية والمرارة، كيف سخّر بعض القادة السوفييت العلم والمعرفة لغايات ساذجة، في رؤية استشرافية زمنَ إصدارها لمستقبل الاتحاد السوفييتي الذي انهار بعد نحو خمسة عقود، من خلال قصّة متخيّلة عن البروفيسور بيرسيكوف الذي يكتشف أثناء تجاربه على البيض شعاعاً أحمر يسرّع نموّ الكائنات الحية، فتستخدم الحكومة السوفييتية الشعاع الأحمر لكنّها ترتكب أخطاء قاتلة.

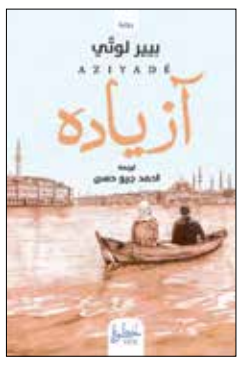

بتوقيع أحمد جيو حسن، صدرت عن «دار خطوة» ترجمة عربية لرواية الكاتب والمستشرق الفرنسي بيير لوتي (1850 - 1923) **آزياده**. يروي لوتي في هذه الرواية، التي صدرت بالفرنسية عام 1879 ويعدّها النقّاد أفضل أعماله الأدبية، قصّة حُبّ بين الراوي وامرأة شركسية تُدعى آزياده، مصوّراً مشاعر النشوة والرغبة واليأس، ومن خلال ذلك، يتناول صراع الثقافات بين الشرق والغرب، ويُقدّم لمحة عن التوتّرات الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة داخل الإمبراطورية العثمانية؛ حيث تنعكس النقاشات الفلسفية والدينية على حياة الشخصيات.